فن الترجمة عند أبي القاسم سعد الله

The Art of Translation by Abu Al-Qasim Saadallah

الدكتور: العزوزي حرزولي [1]
قسم اللغة العربية جامعة الوادي (الجزائر)
Lazzouzi1970@gmail.com

الدكتورة: حليمة عواج [2]
قسم اللغة والأدب العربي جامعة باتنة
aouadjhalima@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2021/04/01 تاريخ القبول: 2021/06/09 تاريخ النشر: 2021/11/04

الملخص

... تهدف هذه الورقة العلمية لدراسة أدب التراجم عند العلامة أبي القاسم سعد الله لإبراز قيمتها العلمية و خصائصها الفنية ، و ذلك عبر ثلاثة محاور : المحور الأول مؤلفاته بين مقدمة تحقيقاته ، و في ثنايا مؤلفاته ، و تقديمه لبعض أعمال المؤتمرات ، و ثانيها إبراز ما أضافته هذه التراجم للحياة العلمية بما تضمنته من آراء و أما المحور الثالث فمن أجل إبراز القيمة الفنية لهذه الأعمال .

Abstract

This scientific paper aims to study the literature of biographies by the scholar Abi Al-Qasim Saad Allah to highlight its scientific value and artistic characteristics, through three axes: The first axis is his writings between the introduction to his investigations, and in the folds of his books, and his presentation of some conference works, and the second Highlighting what these translations have added to the scientific life with the opinions they contained. The third axis is to highlight the artistic value of these works

فن التراجم من الفنون الأصيلة في تراثنا الأدبي، وغزارة ما كتبه أبو القاسم سعد الله في هذا الفن مما يساعد في معرفة شخصيته الأدبية، ذلك أنَّ الساحة الثقافية عرفت أبا القاسم سعد الله مؤرخا وأديبا بمؤلفات عديدة وأينع ثمار امتزاج الأدب والتاريخ هو فن التراجم، فالترجمة فن أدبي متميز وثيق الصلة بالتاريخ لكنه يختلف عنه منهجا وغاية ، شديد الشبه بالقصة ومتميز

عنها، إذ يشتركان في عنصر الخيال الذي يضفيه الأديب على الأحداث لكن الشخصيات في التراجم أقل أهلية من شخصيات الرواية لكي تنأى بنا الحاجة إلى الفعل وإصدار الحكم لأن هذه الشخصيات كان لها وجود فعلي[1]. فكاتب السيرة أديب فنان كالشاعر والقصصي في طريقة العرض والبناء، إلا أنه لا يخلق الشخصيات من خياله، ولا يعتمد الشخصية الأسطورية، ككاتب المسرحية، فهو لا يستطيع أن يقول شيئاً عن أوديب أو يمليخاً أو شهرزاد، لأن شخصياته تتصل بالمكان والزمان، ولا توجد إلا بوجودهما؛ ومن ثم كان في طريقته أقرب إلى المعماري، وهو كالمؤرخ في قوة النقد، وكالعالم في القدرة على التصنيف والتقسيم.[2]

وتميّز سعد الله في فن التراجم نابع من ارتكازه على أهم دعامتين في هذا الفن فبعض التراجم تغلب عليها المسحة التاريخية وهي التي يكتبها عادة المؤرخون، وبعضها الآخر يغلب عليها الخيال لأنها من تأليف الأدباء الذين أَلِفوا جذب انتباه القارئ بتركيزهم على الجانب الخيالي لأبطال قصصهم، فلما امتلك الرجل ناصية الفنين، جاءت تراجمه على طرق المؤرخين و لكنها نابضة بخيال الأدباء. وهذا ما جعل بعض الباحثين يذكر ما يراه من محاذير كتابة التراجم فخيال المؤرخ غير خيال الأديب الذي يسبح في أجواء سامقة، من صنع نفسه وإلهام ذاته، غير عابئ بالحقيقة المجردة إلا بقدر ما يلهمه الخيال من صور النفس في نزعاتها الأزلية وفي لا نهائياتها المترامية، فخيال المؤرخ أقرب إلى التصور، تصور ما كان على ضوء ما يعرفه عنها، أما خيال الأديب فخلق وإبداع[3].

وفن التراجم فن قديم جديد فجذوره ضاربة في التاريخ الإنساني فلطالما تعلق الإنسان بأثر يذكره بالماضي لكنه عرف من التطور في القرنين الأخيرين ما جعله متميزا في العصر الحديث.

1. الترجمة لغة واصطلاحا:

لهذا الجذر معان متعددة ولعل أقربها إلى ما نحن بصدده هو ما أورده الفيروز أبادي أن الرَّجْمُ من الخَبَرِ، والالْتواءُ في الجَسَد[4]، ذلك أن التراجم رواية الأخبار وأما في الاصطلاح (التَّرْجَمَة) تَرْجَمَة فلَان: سيرته وحياته (ج) تراجم[5].

رغم أن الكثير من الباحثين يسوي بين الترجمة والسيرة وهو الرأي المعتمد في هذه المقال، ولكن هذا لا يعني أن كل الباحثين لا يرى فرقا بين المصطلحين، وإذا كان معروفا أنّ كلمة السيرة أسبق تاريخيا، إلاّ أن العصر الحديث شهد استعمال المصطلحين عند الباحثين ويدلّل الرافضون للتطابق بين المصطلحين بأن الترجمة ليست أصيلة في اللغة العربية بل تسربت إليها من اللغة الآرامية وأن استعمالها بدأ مع ياقوت الحموي." ولو تتبعنا كلمة ترجمة نجدها دخيلة غلى اللغة

العربية من اللغة الآرامية جرى الاستعمال بها في أوائل القرن السابع للهجري، استعملها ياقوت الحموي في معجم البلدان بمعنى حياة شخص، وأبو الفرج الأصفهاني في كتاب "الأغاني" لم يستعمل كلمة ترجمة عند حديثه عن حياة الشعراء وغيرهم ، بل عبارة خبر"[6].

أما الدكتور سعد الله فيكثر من استعمال مصطلح "تراجم" للتعبير عن السير التي كتبها والملاحظ أنّ الترجمة والسيرة مصطلحان متقاربان إلى حد التطابق في الحياة الأدبية المعاصرة

فالسيرة مصطلح يدل على ترجمة الحياة أو سيرة الحياة وهي عبارة عن ترجمة حياة أحد الأعلام، وأهم السير سيرة ابن هشام وسيرة الملوك، وقد تكون ترجمة المؤلف عن نفسه فهي في الأدب تدل على السلوك وأسلوب الحياة والترجمة[7].

2.أهمية أدب التراجم والسير:

سبق وأن ذكرنا أن الإنسان منذ بداية وجوده تعلّق بأثر يربطه بالماضي، ولذلك انتشرت بين الأمم كتابات تذكرها برجال عظماء في ماضيها، كما أن الاعتقادات الدينية المختلفة كانت تحرص على تخليد ذكرى المخلصين لتلك المعتقدات، فالثقافة العبرية احتفظت لنا بكثير من تراجم أتباع الديانة اليهودية، وكذلك الأمر في الأمم الشرقية عامة من صينية و هندية و غيرها ولعل هذا ما يفسر هذه العلاقة بين هذا اللون من الأدب والتاريخ على اختلاف بينهما، وإن كانا نتاجا للبحث التاريخي، ولكن " للسير ألوانها كما للتاريخ صنوفه وكلما كان بطل السيرة أقرب إلى مزاج المؤرخ وإلى ميدان بحوثه تجلت قدرة المؤرخ في إبراز سيرته وتصويرها، وكلما اتسع أفق المؤرخ واتسقت آفاق معرفته كلما كان أقدر على كتابة العديد من ألوان السير"[8]، وهذا ما يجعلنا نحكم باطمئنان أن هذا اللون الأدبي لا يتأتى لجميع الكتاب فالأمر ليس بالهين بل يتطلب معارف كثيرة وصبرا في الوصول إلى الحقيقة مع أسلوب عذب وقدرة على شد القارئ.

يقول أبو الحسن الندوي وهو من الذين كتبوا كثيرا في هذا الفن :" ولكن وصف شخصية أو ترجمة إنسان ليست من السهولة والعموم بالدرجة التي يتصورها الكثير من الناس، فإن ذلك يحتاج إلى عدة مؤهلات، أولاها: المعرفة الشخصية الواعية الناقدة إذا كانت عن طريق المعاشرة والصحبة فهي من أفضل المؤهلات وأقواها وإلا فمن طريق الدراسة الأمينة وتتبع الأخبار"[9].

وتحتل السير والتراجم في مدونة التاريخ مكانا مرموقا، فإذا كان التاريخ هو البحث وراء الحقيقة وتمحيصها وجلاء غموضها في أي جانب من الجوانب الإنسانية، فإن السيرة هي البحث عن الحقيقة في حياة إنسان فذ والكشف عن مواهبه وأسرار عبقريته من ظروف حياته التي

عاشها والأحداث التي واجهها في محيطه، والأثر الذي خلفه في جيله، لذلك كانت أقرب إلى التأثير الدرامي من كل ألوان التاريخ الأخرى[10].

ومن أهم أنواع الترجمة الذاتية والغيرية، أما الذاتية فهي التي تعرف السيرة الذاتية فهو حكي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة[11].

أما الترجمة الغيرية فهي السيرة الغيرية وهي ترجمة إنسان بإعطاء صورة مشوقة عن حياته[12]، وهذا ما نحن بصدد دراسته عند أبي القاسم سعد الله الذي يعدّ من أعلام التراجم في الأدب العربي الحديث.

3 ـ التراجم في الأدب العربي بين القديم والحديث:

أصالة فن التراجم والسير معروفة مشهورة، بل إنّ معرفة أيام العرب وهي من ميزات العلماء تمثل جانبا من جوانب التراجم، واهتمام العرب المسلمين بهذا الفن موغل في القدم مما أنتج أعدادا كبيرة من المؤلفات حتى أن بعض الباحثين صرّح بتقدم العرب عن من سواهم في هذا الميدان، " إن السيرة بلغت في التراث العربي حدا لم تبلغه في أي تراث لأمة أخرى معروفة في التاريخ القديم أو الحديث"[13]، وأول السير المشهورة هي ما كتبه أصحاب المغازي عن سيرة النبي صلى الله عليه سلم وتتابعت الكتابة في السير إلى ما كتبه ابن طولون وغيره، كما أن علماء الجرح والتعديل قد قدموا عملا جليلا في هذا الميدان إذ كانت عنايتهم الشديدة بتراجم الرجال مدخلا استفاد منه من جاء بعدهم، فعلم الجرح والتعديل ليس إلا تمحصيا لأخبار الشخصيات المقصودة، ثم عرفت مختلف الفنون والعلوم كتبا في الطبقات والتراجم للمفسرين والقرّاء والنحاة والأطباء وغيرهم، وهكذا وجدنا في كل علم أو فن كتبا تهتم بالتراجم وهي من الكثرة والشهرة مما يغني عن سردها ، ومع أنها كتبت بأسلوب عصرها إلا أنها أخذت من علم الجرح والتعديل الحرص على التوثيق وإظهار الاعتدال في الحكم على الشخصيات. ومن أمثلة كتب التراجم في تراثنا : أسد الغابة في معرفة الصحابة، الإصابة في حياة لصحابة، وبغية الوعاة في معرفة النحاة للسيوطي، وغيرها. و قد بلغت كتابة السير والتراجم على يد العرب ما لم تبلغه على يد الإغريق والرومان، فأرّخوا للمدن كما أرخوا للأعلام، ومن قبيل ذلك كتاب"ولاة مصر وقضاتها: للكندي(ت 350هـ)، وتاريخ بغداد وأعلامها للخطيب البغدادي (ت463هـ) وتاريخ دمشق لأبي العساكر من مؤرخي القرن السادس الهجري، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي و"وفيات الأعيان" لابن خلكان من مؤرخي القرن السابع الهجري، و"الدرر الكافية" لشهاب الدين بن حجر العسقلاني"[14].

ورغم أن الكتابة في فن التراجم قد أسهم فيها المؤرخون والأدباء على مختلف مناهجهم فعرف الأدب العربي كتابات كثيرة منها ما كتبه عباس محمود العقاد في سلسلة العبقريات حتى نظن أننا لا نجانب الصواب إذا قلنا أن الكتابة في السير عمت العالم العربي مغربا ومشرقا، ولكننا مع ذلك نلفي من الباحثين من يرى أن هذه التراجم لم تصل إلى المأمول فقد "ظل أكثر السير في العالم الإسلامي مجموعة من الأخبار المأثورة أو المشاهدات، ليس فيها وحدة البناء ولا الإحساس بالتطور الزمني، ولا تتبع مراحل النمو والتغير في الشخصية المترجمة، وبالاختصار ظلت السير دون شكل تام، ودون محتوى وافٍ كامل، حتى العصر الحديث، حيث واجهت بعض التغير في القاعدة والطريقة، وكان ذلك بتأثير من الثقافة الغربية"[15].

4. التراجم في مؤلفات سعد الله:

لا ضير أن يكتب المؤرخ التراجم فعلاقة التاريخ بالترجمة واضحة وثيقة ولكن التركيز يكون على ماهية هذه التراجم وأسلوبها والغاية منها، ونحن هاهنا نركز على الجانب الأسلوبي أما الدقة التاريخية فهي مما لا يستغنى عنه ذلك إن علاقة التاريخ بالترجمة تكاد تكون علاقة الأصل بالفرع ، "ذلك الحس التاريخي هو الأب المنجب للسير يوم كانت السير جزءاً من التاريخ، ويوم كانت حياة الفرد تمثل جانباً هاماً من تصور الناس للتاريخ، وإيمانهم بأن الفرد هو الذي يكيّف الأحداث ويرسم الخطط، ويقوم بالتفكير والتنفيذ، وتتضاءل إلى جانبه ؟ أعني جانب الفرد العظيم ؟ كل حقيقة أرضية أخرى.

ففي أحضان التاريخ إذن نشأت السيرة وترعرعت، واتخذت سمتاً واضحاً، وتأثرت بمفهومات الناس عنه على مر العصور، وتشكلت بحسب تلك المفهومات، فكانت تسجيلاً للأعمال والأحداث والحروب المتصلة بالملوك عند الصينيين والمصريين والآشوريين، وكانت تفسيراً لبعض المبادئ السياسية عند فلوطارخس Plutarch في كتابه عن عظماء اليونان والرومان"[16]

ويمكن تقسيم التراجم بحسب الحجم والغاية إذ نجد التراجم الطويلة والتراجم المختصرة والذي تبرره الغاية لعلمية من الترجمة، كما هو الشأن عند أبي القاسم سعد الله فالتراجم في مقدمات تحقيقاته هي الأطول من غيرها التي تكون في ثنايا مؤلفاته.

ومن المهم الإشارة إلى أن الدكتور سعد الله قد أكثر من التأليف في التراجم كما حقّق أيضا كتبا في التراجم، مثل كتاب "أعيان من المشارقة والمغاربة" المعروف بتاريخ عبد الحميد بك، والذي ترجم فيه صاحبه لثمان ومائة شخصية اختلفت طولا وقصرا بين تراجم في صفحات وبين أخرى

في سطرين مثل التي نجدها للشيخ يونس البيباني، ففي تاريخ الجزائر الثقافي والذي يغطي الفترة من 1500-1830 ميلادي والذي ركز فيه عن العهد العثماني في الجزائر كانت التراجم مبثوثة في ثنايا الصفحات، فحديثه عن العلاقة بين العلماء والأمراء وتوصيفه للنشاط اللغوي والأدبي في المناحي المختلفة من تصوف وعلم الكلام وغيرها قاده إلى ذكر الشخصيات الفاعلة في الساحة الثقافية الفكرية كالنقاوسي والثعالبي وابن زكري والجزائري والسنوسي والبسكري والقسنطيني وأبو عصيدة، كما لم يخل حديثه عن علوم المنطق والقراءات والتفسير والفقه من تراجم كما هو الحال للونشريسي صاحب كتاب المعيار والقسنطيني صاحب كتاب النوازل، وغيرهم، فهذه التراجم وإن لم تكن مقصودة لذاتها فإنها متضمنة في مضامين الكتاب، كما أن حديثه عن الحياة السياسية التي سادت تلك الفترة والثورات ضد العثمانيين يجر بالضرورة إلى ذكر أعلام تلك الفترة والشخصيات المؤثرة في الحياة السياسية، وكذلك الشأن في حديثه عن المؤسسات في تلك الفترة نظير حديثه عن المساجد والمدارس والزوايا والمعاهد والمكتبات في مختلف ربوع الجزائر يتخلله ذكر شخصيات وإن كان بدرجة أقل وكذلك الأمر في حديثه عن التعليم ورجالاته، لكن الحديث عن التراجم بطريقة أطول نجده في حديثه عن العلماء ووظائفهم وعلاقتهم بالسلطة وهجراتهم إلى الأقطار العربية والإسلامية كما نجد تراجم لشخصيات صوفية كالمليانى والأخضري والخروبي والأزهري والطريقة التيجانية ومؤسسها التجاني والرحمانية وغيرها يتركز أساسا على باعثي هذه الطرق ومؤسسيها و الشخصيات المؤثرة، وتوقف عند شخصية مهمة كانت لها مواقف من التصوف وهي شخصية عبد الكريم الفكون.

أما الجزء الثاني فهو امتداد للجزء الأول اذ تحدث العلامة سعد الله عن العلوم الشرعية وذكر أعلام الجزائر في هذا الحقل المعرفي كأحمد البوني وخليفة بن حسن الأقماري وعبد العزيز الثميني، كما عاد للحديث عن علم الكلام والتصوف والمنطق وتحدث عن رجاله كيحي الشاوي الذي طالت ترجمته اذ تحدث عن حياته ورحلاته وآثاره إلى جانب الكثير من الأعلام. أما حديثه عن علوم اللغة والأدب فحلل الإنتاج العلمي للجزائريين وخلص إلى أن التأليف في النحو يتفوق على غيره من الميادين وذكّر بأعلام الجزائر البارزين كابن معطٍ وهو يحي بن عبد معطِ بن عبد النور الزواوي، صاحب الألفية المشهورة وعاشور القسنطيني وابن راشد والتواتي وسعيد قدورة وأبو القاسم البجائي وغيرهم، كما جاء على ذكر أعلام البلاغة ومن أبرزهم عبد الرحمان الأخضري كما تحدث عن البارزين في الفنون النثرية من أمثال أبي رأس الناصر وسعيد المنداسي وأحمد المقري، وأحمد بن عمار، كما تحدث عن أبرز الشعراء.

أما الفصل الخامس فكان آثر الفصول بالتراجم إذ تحدث عن التراجم العامة والخاصة كحديثه عن الورتلاني وابن المفتي، كما تحدث عن أعلام الفنون والعلوم كالصيدلة والجراحة وغيرها، كما توقف طويلا عند عبد الرزاق حمدوش.

أما في الجزء الثالث الممتد من سنة 1830 إلى سنة 1954، وأثناء حديثه عن التعليم والمدارس القرآنية والمساجد ترجم فيه لكثير من البارزين من أمثال بوقندورة، ابن الحفاف، وابن سماية، كما تحدث عن الونيسي وبن جمعة وبن مرزوق، وفي حديثه عن الزوايا وخاصة في منطقة زواوة والجنوب تحدث عن أشهر رجالها، وعند حديثه عن المدارس الحرة تحدث عن الشيخ أطفيش في منطقة غرداية، وأضرابه من العلماء.

وعند حديثه عن السلك الديني والقضائي وما لحق أبناء الجزائر من حيف الاستعمار ، تحدث عن جملة من الأعلام .

5 ـ الخصائص الأسلوبية للتراجم عند أبي القاسم سعد الله:

لا نهدف في هذا المقام إلى رصد كل الخصائص الأسلوبية لكتابات سعد الله، وإنما نحاول التركيز على أكثرها ظهورا في ما ألّفه من تراجم، ذلك أن البحث للخصائص الأسلوبية لكاتب من هذا الطراز يتطلب مؤلفا مستقلا، ولكننا حاولنا الوقوف عند أبرزها.

أسلوب التشويق:

من أكثر ما يشد القارئ في ما كتبه سعد الله أسلوب التشويق الذي تعددت طرائقه فتراه أحيانا يعطي المعلومة في شكل ثنائية السؤال والجواب، كقوله :" فكيف إذ سنترجم هنا لحياة العدواني؟" ثم يجيب " إننا سنحاول أن نفعل ذلك بالاستعانة بما في كتابه من إشارات"[17]. ويقول في موضع آخر شادا انتباه القارئ بعد عرضه لمواقف ابن فكون:" ترى لماذا فعل الفكون ذلك؟"[18]

العنونة عند سعد الله:

مما يلفت في كتابات سعد الله أنه يختار عناوين دقيقة ذات دلالات تجذب القارئ لما يكتب، فترجمته للطاهر العبيدي التي وردت ضمن عنوان "مراسلة غريبة بين بن باديس وأحد علماء سوف" فتجد عناصر الجذب في العنوان من ناحيتين، لفظ "غريبة" ووصف المراسلة بها مما يحرك في نفس المتلقي البحث فيها، كما أنه لم يذكر العبيدي بالاسم، وكنى عنه بأحد علماء سوف، ثم تراه يترجم له ويذكر مؤلفاته مبررا ذلك بأن الشيخ ابن باديس معروف للعامة

والخاصة، أما الطاهر العبيدي فمن حق القارئ أن يطلع على ترجمته، وهكذا في عناوين مؤلفاته التي ترجم فيها لأعلام الجزائر، من ذلك شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية[19]، كما عنون كتابه عن ابن العنابي بـ"رائد التجديد الإسلامي" محمد بن العنابي" [20] وهكذا.

أسلوب الإجمال ثم التفصيل:

وهذا نجده مثلا في كتابه" منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية" متحدثا عن المؤلف: "هو عبد الكريم الفكون بن محمد بن عبد الكريم الفكون...فهو إذن ابن عائلة وابن مدينة وابن عصر، إنه ابن عائلة الفكون ذات التاريخ العريق...ثم ابن الفكون ابن مدينة هي قسنطينة...أما كونه ابن عصره فقد ولد سنة 988هـ، 1580م" وهو تاريخ له دلالة بالنسبة لمن عرف أحوال المغرب العربي في القرنين السادس عشر والسابع عشر ميلادي.

اللغة عند سعد الله:

يختار أبو القاسم سعد الله المترجم ألفاظ الشاعر فهي نابضة بالحياة عذبة، ولذلك يمتزج الأسلوب التاريخي الرصين بلغته الواضحة مع الأسلوب الأدبي بحلته القشيبة، يقول مترجما ليحي الشاوي رابطا إياه بشخصية أخرى:" وكلاهما كان يتمتع بعلم غزير وبحافظة نادرة وذكاء قوي وطموح شخصي كبير واستعداد لركوب سفينة الحياة والخوص بها لجج البحار هادئة ومائجة..."[21].

الخصائص العامة للتراجم في مؤلفات سعد الله

حرصه على توخي الموضوعية:

كل من يقرأ لسعد الله يلمس هذا الحرص على الموضوعية، وإفادة القارئ فحتى مواقفه يبرزها بشكل ذكي ولا يقطع فيها برأي فنجده مثلا يتحدث عن الصبغة الصوفية للشابيين فيقول:" ويهمّنا من ذلك أن بعض الشابيين كانوا متصوفة أو يظهرون التصوف"[22]، فلم ينسب لهم التصوف ولم ينفه عنهم، كأنما يريد للقارئ أن يعرف أنهم موصوفون بالتصوف دون أن يتحمل مسؤولية هذه المعلومة، كما نتوقف في مقدمة حديثه عن محمد العيد آل خليفة شعر الجزائر، وقد دعاه الشاعر لزيارته في بيته، فلم يفعل ذلك فقد خشي أن تتأثر دراسته بتدخل الشاعر فيها، فلا تكون هي دراسة أبي القاسم سعد الله وآراءه، بل ملاحظات محمد العيد آل خليفة وأفكاره.

الحرص على إبراز جهود الجزائريين:

لقد لمّح ابن الجزائر وصرّح بحرصه الشديد على إبراز الإرث الثقافي لأجيال من علماء هذا الوطن الذي له من العلماء الأفذاذ ماله من شهداء أبطال ولعل من أينع ثمرات هذا الحرص مؤلفه الشهير "تاريخ الجزائر الثقافي" وكتب أخرى، وقد شهد له رجل من أعظم علماء الجزائر وأبرز مجاهديها وأشهر مثقفيها وهو الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في تصديره لكتاب سعد الله" شاعر الجزائر" محمد العيد آل خليفة بالقول :" كاتب هذه الدراسة هو أبو القاسم سعد الله، أحد أبناء الجزائر البررة...رحل في هذه السنة 1960 إلى أمريكا ليتخصص في آداب اللغة الإنكليزية الأمريكية...هو مشغوف إلى حد الافتتان بالبحث عن الآثار العربية والأدبية لعلماء الجزائر في جميع العصور"[23]

نسبة الفضل إلى أصحابه:

لا يكاد القارئ يطلّع على تقديم سعد الله لأعماله إلا وتستوقفه تشكراته لمن أعانه على هذا العمل، فمثلا في تحقيقه لكتاب العدواني أشاد بمن زوده بالنسخ كالشيخ الخراز والشيخ محمد الطاهر تليلي وأحمد مفتاح بن عبد الباقي.

أما في كتابه " شيخ الإسلام عبد الكريم فكون" تحد بلغة تنبض امتنانا للذين ساعدوه للوصول إلى المخطوط فيقول:" بقي علي أن أشكر الذين قدموا لي يدا بيضاء لإنجاز هذه الدراسة، وأخص بالذكر الشيخ المهدي البوعبدلي، الذي لولاه لما اطلعت على منشور الهداية، والدكتور عبد الجليل التميمي والشيخ عبد المجيد بن حبة والدكتور صالح خرفي" وقد نقلنا هذا النص لإبراز حرص هذا الرجل على ذكر من ساعده بالاسم.

6 ـ نماذج من التراجم عند سعد الله:

ذكر سعد الله في كتاب تاريخ الجزائر الثقافي في الجزء الثاني ما أسماه التراجم الخاصة والتراجم العامة، والترجمة في فن التراجم الخاصة لثلاثة من أعلام الجزائر هم:

محمد الطاهر التليلي: رغم العلاقة الوطيدة التي تجمع الكاتب بالمترجم له إلا أنه يحترم من يقرؤون له، فيترجم له بطريقة دون أن يذكر علاقة الخاصة به فكلما نزل بقمار كانت زيارته الثانية للتليلي بعد أن يزور والدته فيقدم بتوطئة جذابة كأنما يرسم صورة للشيخ :"هذا الشيخ بناظراته العتيقة الذي يفترش بساطا عاديا وحوله بعض الكتب والكراريس المتناثرة"[24]، ثم يذكر ميلاده ومسار حياته، وفي الأثناء معلومات تاريخية مهمة، فيعقب على أصل عائلة تليلي التي انحدرت من جنوب تونس بالقول:" وكان لبيات تونس مصالح مع نواحي الزيبان والجريد ولاسيما

خنقة سيدي ناجي ووادي سوف"[25]، ويقول في موضع آخر عن التعليم في تونس:" كانت تونس عندئذ لا تبث علم جامع الزيتونة فقط ، بكنها تبث علوم الدين واللغة والأدب والسياسة والفن أيضا...وكانت الدروس العصرية في الخلدونية والصادقية ترفد دروس الزيتونة التقليدية"[26].

وقد تحدث أيضا عن الشيخ التليلي أيضا في مقدمة أعماله لملتقى حول الشيخ وأعمال ، فتحدث عنه بطريقة تكاد تكون متطابقة في حياة الرجل و بعد وفاته .

ابن المفتي:مهّد أبو القاسم سعد الله لابن المفتي بتبيين أهمية مؤلفه، فلم يستهل بالبداية التقليدية للمترجم له من ذكر اسمه ومولده إلا بعد صفحتين من بداية الترجمة، ولو أننا تعودنا من سعد الله توطئة لتراجمه إلا أننا لاحظنا أن هذه التوطئة قد طالت قبل بداية التعريف بالمترجم له، ولعل ما يفهم من هذه الطريقة هو أهمية الكتاب رغم أن التركيز كان عن طريقة خروج تقييد ابن المفتي إلى النور ومن أخذ عنه، والإشارة إلى أن من بعده لم يشيروا إلى هذه التقييدات، وبعدها يعرفنا بهذه الشخصية العلمية و الظروف التي أحاطت بها وأهمية هذا التأليف مختتما بالدعوة إلى الاستفادة من هذا المؤلف. "والواقع أن ابن المفتي الذي لا نعرفه حتى الآن اسمه الحقيقي قد كتب عملا جديرا بالتقدير وهو لم يكتب كتابا بالمعنى التقليدي للكلمة ولكنه كان يقيد ملاحظات وآراء وتأملات فإذا بها تصبح بالنسبة إلينا مصدرا قويا عن عصره وأهله.

أبورأس الناصر: يستهل أبو القاسم سعد الله ترجمة أبي رأس الناصر بهذا الاستهلال الملفت لأنه كم سبق وان ذكرنا في هذه الورقة يقدم المقاييس العلمية ويهتم بالآثار قبل صاحبها فيقول:" لا يمكن أن نكتب فصلا عن التاريخ والتراجم في الجزائر خلال العهد العثماني دون الترجمة لأبي راس الناصر فقد كان على رأس المؤرخين إنتاجا وإدراكا لأبعاد الدراسة التاريخية"[27]. إن هذه الشهادة التي قدم بها ترجمة هذا العلم والتي استغرقت خمس صفحات القارئ صورة واضحة عن مكان هذا العلم. ونراه في هذه الترجمة على غير عادته ينقل في صفات المترجم له ولكنه يبين الغاية التي نقل من أجلها هذه الصفات، إذ يقول:" وقد قيل في وصفه بأنه كان متوسط القامة نحيف الجسم أبيض البشرة خفيف اللحية صغير العينين طويل الأنف نحيفه، ولعل كنيته أبو راس قد لصقت به لذلك"[28]، ولم تمنعه إشادته بهذا العلم أن يذكر ما فيه من نقائص، بل يلمح إلى وصف ثقافته بأنها لم تكن واسعة على الرغم من كثرة تآليفه،" كانت ثقافة أبي رأس ثقافة عامة غير مركزة، وكانت ثقافة محلية، وكانت تقوم على المجهود الشخصي أكثر من أي وسيلة أخرى، يعززها ذكاء حاد وذاكرة قوية وطموح بعيد المدى، وكان بوراس فخورا بنفسه وبما أنجز من تآليف،... فهو لا يراجع الدروس، ولا يبالي بقواعد النحو"[29].

الورثلاني: رغم أن حديث سعد الله عن الورثلاني جاء تحت عنوان الرحلات، لكنه أفرد له ترجمة لإسهامه بمؤلفاته في إضاءة جوانب من تاريخ الجزائر، وقد ركّز في هذه الترجمة على عوامل بروزه بطريقة جذابة فبين مصادر قوته :" وهكذا اجتمع في أصول الورثلاني الدين والدنيا، الدين عن طريق جده ووالده الذين كانا من المرابطين، والدنيا عن طريق أخوله أولاد أمقان الذين كانوا حكاما ورجال سيف"[30]، ثم يستلسل في ترجمة هذا العلم بطريقة أقرب ما تكون إلى القصة ليبين ما يستفاد من رحلة الورتلاني وطبيعة الحياة السائدة في تلك المنطقة من الجزائر في تلك الحقبة.

كما أن من ميزات التراجم عند سعد الله اهتمامه بالأعمال قبل الشخصيات فتراه على غير عادة كتاب التراجم القدماء يسهب في الحديث عن التفاصيل الصغيرة في حياة الأعلام، فلا يتوقف كثيرا عن صفاتهم الجسمية أو غيرها، بل لا تجد معلومة إلا وتجد لها توظيفا، فلو أخذنا مثلا ترجمته للطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري لوجدناه درسها في العناصر الآتية: عصره، أولياته، أسرته وأولاده، ثقافته وأسفاره، شيوخه، مطالعاته الشخصية، تلاميذه، خصومه وأصدقاؤه، وظائفه ، تجاربه العلمية، شعره، مقاماته هو والتصوف[31]. بينما نجده يترجم لمحمد العيد آل خليفة بطريقة أخرى سواء في المصطلح أو في المضمون، فهو لا يتحدث عن مولده بل يبدأ بتمهيد ثم يتحد عن مسيرته الحياتية معنونا لها مع الحياة، ثم تراه بثقافته الأدبية يربط بين وفاة البارودي الشاعر المصري المعروف وميلاد شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، فلا ينقل لنا إلا ما يراه مفيدا للقارئ، ورغم ذلك فإن إطلاعه الواسع عن الفنون الأدبية جعله قد يذكر قضية قد لا يتفطن لها غير المتخصصين من القرّاء، فعلّق على بيتين لابن حمادوش فقال:" قصيدة كتبها حين أدركه عين الأضحى...وهي من أحسن شعره ومع ذلك لم تخلُ من السخف وكسر الوزن"

لقد كنت قبل اليوم أصبر صابرا *** وها أنا في هذا الآوان ذليل

أنوح على بعد الديار صبابة ***نواحي(كذا) الثكالي تحسبوني جميل[32]

وهكذا فلم يذكر صراحة موطن كسر الوزن ولا السخف الذي وجده في البيتين ومصدره.

التثبت عند سعد الله:

من ميزات أدب التراجم عند سعد الله أنه حريص من حيث المضامين على التثبت حذر من إطلاق الأحكام، فيقول مثلا عند تعليله عن ابن فكون :" عدم تعرض ن فكون للوضع السياسي والعسكري على المستوى الدولي إلا بإشارات قليلة جدا"، ويركز حديثه عن الشؤون الداخلية

فيصرح "إننا لا مكن أن نتهمه بقصر النظر"، ويسمي خلاصته التي خرج بها تفسيرا منبها على أنها وجهة نظره رغم ما يسوقه من أدلة على رأيه[33].

ونجده يتحدث عن عائلة من بلدته ولكنه يلتزم التثبت فيقول عن أصل عائلة التليلي أن جدهم الأول سيدي التليل الذي ينسبه النسابون إلى الخليفة عثمان بن عفان[34]. بل أنه بعد أن يعرض ترجمة شخصية مهمة كشخصية يحي الشاوي على ما فيها من مكابدة يقول بتواضع:" وهذه الترجمة القصيرة لحياة الشاوي لا تكشف عن جميع جوانب نشاطه العلمي، فقد رأيناه واسع العلم كثير الترحال متعدد الاختصاص"[35]

وخلاصة القول أن ما كتبه شيخ المؤرخين الجزائريين من تراجم يشكل مادة علمية مهمة حقيقة بالدراسة فقد تضمنت من الحقائق التاريخية والمميزات الأسلوبية ما يحفز الطلبة والباحثين على الاستفادة و الإفادة بها وبيّن هذا العمل أهمية هذا الفن

فقد تكاملت في هذا الفن النثري جماليات الأدب مع رصانة البحوث التاريخية كما مثّلت نموذجا في الاهتمام بالتراث مع ما يجب أن يتحلى به الباحث الجاد من صبر وأناة وعدة علمية ظهرت في ماكنبه سعد الله في هذا الفن وما ميّز عمله فيشكله الفني ومضمونه العلمي

قائمة المصادر والمراجع

1. فن التراجم والسيرة الذاتية، اندريه موروا، ترجمة وتقديم وتعليق ، أحمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة 1999
2. فن السيرة، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت – لبنان، ط2،.
3. التاريخ والسير ، حسين فوزي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1964، القاموس المحيط، الفيروز أبادي، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، محمد نعيم العرقسُوسي،بيروت ج1،

4. المعجم الوسيط،، إبراهيم الوسيط وآخرون،دار الدعوة، ج1،
5. نقد الذات، قراءة في السيرة، العيساوي ريم فدى طوقان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1998،
6. المعجم المفصل في الأدب، محمد التونجي، دار الكتب العلمية ، بيروت،ط1، 1993،ج2،
7. التاريخ والسير ، حسين فوزي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1964،
8. كلمة عن أدب التراجم والسير، أبو الحسن الندوي، كلية اللغة العربية وآدابها، ندوة لوكنهؤ، الهند، 1985،
9. السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، فيليب لوجون، تر عمر حلي، المركز الثقافي العربي بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1994،
10. الأدب وفنونه، علي بوملحم، المطبعة العصرية للطباعة والنشر، دت،
11. التراجم والسير، حسن محمد عبد الغني، دار المعارف ، القاهرة، ط3، 1980،
12. تاريخ العداوني، محمد بن محمد العدواني، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2005،
13. منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1987
14. شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، لبنان، ط2، 2005
15. رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنابي صاحب كتاب السعي المحمود في نظام الجنود، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2005
16. تصدير الشيخ الإبراهيمي لكتاب شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، لبنان
17. أفكار جامحة، أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988،.
18. الطبيب الرحالة بن حمادوش الجزائري: حياته وآراؤه، أبو القاسم سعد الله، ط2005،2،دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان

الإحالات:

[1] ينظر فن التراجم والسيرة الذاتية، اندريه موروا،ترجمة وتقديم وتعليق ، أحمد درويش،المجلس الأعلى للثقافة 1999 ص41

[2] فن السيرة، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت – لبنان، ط2، ص85.

[3] التاريخ والسير ، حسين فوزي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1964، ص 57

[4] القاموس المحيط، الفيروز أبادي، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، محمد نعيم العرقسُوسي،بيروت ج1، ص 169

[5] المعجم الوسيط،، إبراهيم الوسيط وآخرون،دار الدعوة، ج1، ص 83

[6] نقد الذات، قراءة في السيرة، العيساوي ريم فدى طوقان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1998، ص 109

[7] المعجم المفصل في الأدب، محمد التونجي، دار الكتب العلمية ، بيروت،ط1، 1993،ج2، ص536

[8] التاريخ والسير ، حسين فوزي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1964، ص 105

[9] كلمة عن أدب التراجم والسير، أبو الحسن الندوي، كلية اللغة العربية وآدابها، ندوة لوكنهؤ، الهند، 1985، ص4

[10] التاريخ والسير ، حسين فوزي النجار، 1964، ص 14

[11] السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، فيليب لوجون، تر عمر حلي، المركز الثقافي العربي بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1994، ص8

[12] الأدب وفنونه، علي بوملحم، المطبعة العصرية للطباعة والنشر، دت، ص161

[13] التراجم والسير، حسن محمد عبد الغني، دار المعارف ، القاهرة، ط3، 1980، ص 11

[14] التاريخ والسير، حسين فوزي النجار، ص 34

[15] فن السيرة، إحسان عباس، ص 37

[16] ينظر : فن السيرة، إحسان عباس، ص09

[17] تاريخ العداوني، محمد بن محمد العدواني، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي،بيروت، ط2، 2005، ص 17

[18] منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1987 ص 9

[19] شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، لبنان، ط2، 2005

[20] رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنابي صاحب كتاب السعي المحمود في نظام الجنود، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2005

[21] تاريخ الجزائري الثقافي، أبو القاسم سعد الله، ج2، ص106

[22] تاريخ العدواني ، ص 19

[23] تصدير الشيخ الإبراهيمي لكتاب شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، لبنان، ص ي /ب

[24] أفكار جامحة، أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص 199.

[25] نفسه، ص 200.

[26] نفسه، ص 202.

[27] تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 376

[28] نفسه، ج2، ص 379

[29] نفسه، ج2، ص 379

[30] نفسه، ج2، ص 394

[31] الطبيب الرحالة بن حمادوش الجزائري: حياته وآراؤه، أبو القاسم سعد الله، ط2005،2،دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ص 10

[32] الطبيب الرحالة بن حمادوش الجزائري: حياته وآراؤه، أبو القاسم سعد الله، ص 44

[33] منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية ، ص 9.

[34] أفكار جامحة، ص200.

35 تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله ، ج2، ص 111.